|  |
| --- |
| المناهج النقدية الغربية السنة الثانية ماستر/مج2  ـ محاضرة ـ أ/ إدريس سامية |

|  |
| --- |
| **النقد الاجتماعي المعاصر** |

**تمهيد :**

لا يتطرق الشك إلى حقيقة العلاقة الوثيقة بين الأدب والمجتمع، فالأدب منبثق من المجتمع وصائر إليه، وقد تفطن الباحثون إلى هذه العلاقة منذ القدم وظهرت محاولات لتحليلها منذ القرن الثامن عشر، كما تشهد عليه أعمال هيبوليت تين ومدام دوستايل، وفلاسفة من حجم هيغل وماركس و" نجد في بداية القرن العشرين وعلى خط الموازاة مع أعمال دوركايم أن لانسون يتساءل عن " التاريخ الأدبي وعلم الاجتماع ".

وقد ازدهر النقد الاجتماعي في ظل الفلسفة الماركسية ومقولة أن الأدب انعكاس للمجتمع، وقد فهمت هذه المقولة بطرق مختلفة فمن النقاد من أخذها في حرفيتها وأخذ يبحث عن تجليات الواقع الاجتماعي في مضامين الأعمال الأدبية مباشرة متجاهلا بذلك أدبيتها، مثلما هو الشأن مع ما عرف بالنقد الإيديولوجي ، ومنهم من حاول استيعاب الطبيعة المعقدة و غير المباشرة لعلاقة الأدب بالمجتمع والتي تتجاوز فكرة الانعكاس البسيط و الآلي، لذا ركزوا جهودهم على إعادة رسم هذه العلاقة من خلال الوسائط الكثيرة التي تربط بينهما.

يعد جورج لوكاتش من أهم الرواد المؤسسين للنقد الاجتماعي الذي يربط بين الأدب والواقع ضمن منظور المادية التاريخية، وقد حلل لوكاتش علاقة الأدب بأنماط الوعي وعلاقات الإنتاج التي شكلته، وبرع في دراسة الأعمال الواقعية " العظيمة " التي تهتم ـ حسبه " بإبداع النموذجي الذي تجتمع فيه وتلتقي كل العناصر الحاسمة والجوهرية إنسانيا واجتماعيا لفترة من فترات التاريخ، واهتم كثيرا بالرواية التاريخية التي تنبع أهميتها من كونها تتعامل مع التاريخ موضوعا لها، وهي نفسها نتاج من منتجات التطور التاريخي.

يرى لوكاتش أن الرّواية إفراز للمجتمع الرأسمالي الذي يخلو من القيم الأصيلة حسب تعبيره، ويتّسم بالصراع الطّبقي وسيادة المصلحة المادّية بين النّاس. و يرى أنّ الرّواية تشكّل امتداد تاريخيّا للملحمة بما هي تصوير لشكل من أشكال الصّراع سوى أنّ الرواية تصوّر صراع الإنسان مع الإنسان والملحمة تحكي صراع الإنسان مع الآلهة. ولئن كان البطل في الملحمة هو العنصر البارز ومركز الأحداث فإنّ الرّواية وسائر الأجناس القصصيّة قد تميّزت بتلاشي البطل تدريجيّـا وأسماه لوكاتش ’ التّشيّؤ *Reification* . فأسطورة البطل انتفت وحلّت محلّها الأشياء بما هي شكل من البضاعة التي فرضتها المنظومة الرأسماليّة .

لكن ما يؤخذ على النقد الاجتماعي التقليدي عموما هو قلة اهتمامه بالشكل الأدبي والربط بين الشكل الفني والشروط الاقتصادية والاجتماعية. فقد عمدت النزعة الاجتماعية المباشرة إلى إسقاط الواقع الاجتماعي على محتوى النص الأدبي مقصية بذلك بنيته اللغوية.

وقد أدت دراسات باختين و مدرسته التي تقوم على الاعتقاد الشكلي الذي يهتم بالبنية اللغوية للأعمال الأدبية إلى جانب تأثرها بالماركسية في مبدئها القائل بارتباط اللغة بالايديولوجية وعدم امكانية فصلهما، إلى تطور النقد الاجتماعي وألهمت أفكاره المناهج النقدية التي تسعى للمزاوجة بين المنظور اللغوي والمنظور الاجتماعي، وهذا ما سعى إليه لوسيان غولدمان في البنيوية التكوينية.

**1 ـ لوسيان غولدمان ( 1913 ـ 1970) و البنيوية التكوينية :**

استفاد غولدمان من كتابات جورج لوكاتش حول الرواية وعلاقتها بالصّراع الطّبقي ليصوغ ما يصطلح عليه بالبنيوية التكوينية، التي تقوم على مسلمة أن الأدب يحمل رؤية للعالم، حيث " يكمن العنصر الأساسي بالنسبة إلى المادية التاريخية لدراسة الإبداع الأدبي في كون الأدب والفلسفة يعدان على مستويات مختلفة، تعبيرات لرؤية العالم وفي أن رؤى العالم ليست سوى وقائع فردية، ولكنها وقائع اجتماعية، ويقوم في مركز نظريته مفهوم " رؤية العالم " والتي هي " وجهة نظر منسجمة وواحدة تخص الواقع إجمالا " وليست وجهة النظر هذه هي وجهة نظر الفرد المتغير دائما و لكنها وجهة نظر النسق الفكري لمجموعة من البشر يوجدون معا ضمن الشروط الاقتصادية و الاجتماعية نفسها ".

إنّ الأدب بصفة عامّة يندرج ضمن منظومة فكريّة محدّدة تمكّننا من فهم الواقع الاجتماعي قديما وحديثا. فالاقتصاد يولّد الطّبقات الاجتماعيّة التي بدورها تنتج شكلا من الوعي الحقيقي وعنه ينشأ الوعي الثّوري الحامــل لـ "رؤية جديدة للعالم ". فالأدب في مفهوم المذهب الاجتماعي هو خلق لتصوّر جديد للعالم كبديل عن الواقع الفاسـد "المتدهور"، وإحدى مهمات النقد هي البحث عن التّطابق بين الأثر الأدبي والرؤية للعالم التي ينشدها. واختزل غولدمان مشروع نظريّته في كتاب "الإله الخفي" الذي توصّل من خلاله إلى تحليل بنية المجتمع الأرستقراطي في القرن السّابع عشر وتمظهرات ذلك في المسرح الكلاسيكي ومحاولة تأسيس رؤية جديدة للعالم تستهدف الإطاحة بالمجتمع القديم.

يستند غولدمان إلى نظريات كارل ماركس وجورج لوكاتش في ربطه بين بنية الرّواية وبنية الاقتصاد ويتوصل إلى كون العصر الرأسمالي هو عصر سيطرة القيم المزيّفة على القيم النوعيّة الأصيلة ويحدّد انطلاقا من ذلك مهمّة الرّواية باعتبارها: " بحثا عن قيم أصيلة في عالم متدهور سادته قيم مزيّفة ". ويضبط مهمّة دارس الأدب في مرحلتين:

1ـ مرحلة الفهم : أي دراسة الرّواية من الدّاخل لتحديد بنيتها و هيكلها و ضــــبط " الرؤية للعالم" التي تحملها.

2ـ مرحـلة التفسير: وهي دراسة خارجيّة الهدف منها اكتشاف العلاقة بين البنية الشكليّة للرّواية وعلاقتها بالبنية الاقتصاديّة والاجتماعيّة.

و من أهم المفاهيم التي طرحها غولدمان مفهوم " البنية الدالة" وهو يعبر عن الاتساق الداخلي الذي يعكس الاتساق الخارجي لرؤية العالم في " جملة من العلاقات الضرورية التي تحكم العناصر المختلفة المكونة لها على مستوى الشكل و المضمون معا".

لكن ما يؤخذ على غولدمان هو " أنه يعتبر النص الأدبي ( الروائي ) كيفية مدلولات تحيل مباشرة إلى الواقع الاجتماعي في حين أن الرواية هي مجموعة من البنى الدلالية والتركيبية والسردية التي تتفاعل مع القضايا الاجتماعية والاقتصادية على مستوى اللغة ".

**2 ـ السوسيونقد :**

إن السوسيونقد بعيد عن أن يكون مذهبا موحدا، فهو يضم عدة نظريات وآراء تشترك في التحليل الاجتماعي والايديولوجي للنصوص التي تعتبرها بنى لسانية واجتماعية في آن معا.

نحت كلود دوشي مصطلح " السوسيونقد " sociocritique في نهاية الستينات حيث كانت الشكلانية والبنيوية في أوجها، بالتزامن مع ظهور البسيكونقد لشارل مورون، وضمن أفق ماركسي منفتح والمصطلح "يغطي اليوم عدة مقاربات متكاملة في بعض الأحيان لكنها بالتأكيد متمايزة عن بعضها" وما يجمع بينها فكرة أنه لا يمكن العثور على خارج النص إلا في قلب النص ذاته.

يرى كلود دوشي أن السوسيونقد يستهدف أولا النص، إنه قراءة محايثة بالمعنى الذي تستعيد فيه لحسابها مفهوم النص الذي أقامه الشكلانيون وتجعل منه موضوعا أوليا للدراسة لكن لغاية مختلفة، حيث أن هدف واستراتيجية السوسيونقد هي استعادة نص الشكلانيين لكثافته الاجتماعية.

يتناول السوسيونقد حسب بيير باربريس " قراءة التاريخي، الاجتماعي الايديولوجي والثقافي في هذا التصوير العجيب المتمثل في النص "، ويتساءل حول العلاقة بين بين الممارسة الاجتماعية والممارسة النصية وكيفيات تمظهر التفاعل الاجتماعي النصي على المستوى الامبريقي المتمثل في اللغة .

ومن أعلام السوسيونقد نذكر إدموند كروس كلود دوشي وبيير زيما.

يركز السوسيونقد عند إدموند كروس على عملية التدليل sémantisation في الوظيفة السيميائية للنص، ويلقي الضوء على العلاقات المتبادلة مع العالم والتي لا يمكن إدراكها في المعيش اليومي، ويؤكد على أن اهتمام السوسيونقد ينصب على صيغ انكتاب transcription التاريخ في النص لا على مستوى المضامين، وإنما على مستوى الأشكال .

أما كلود دوشي فهو ينطلق من فكرة أنه لا يمكن العثور على خارج النص hors-texte إلا في قلب النص ذاته، وبالتالي فإن التحليل النقدي الذي سيتم طبعا على مستوى اللغة، سوف ينصب على الجانب الاجتماعي داخل النص وليس الجانب الاجتماعي للنص. يدرس دوشي التوافقات بين مجتمع الرواية ورواية المجتمع الذي يساهم فيه المؤلف، وبما أن البعد الاجتماعي للعمل الأدبي غالبا ما يكون غير واع ومتخفٍّ، فإنه لا مناص من تحليل الجانب الضمني في النص".

**\* بيير زيما وعلم اجتماع النص الأدبي :**

يوظف زيما " علم اجتماع النص الأدبي " كمرادف للسوسيونقد، وهو يؤكد على أهمية البعد النقدي للنصوص؛ "إن النقد الأدبي حسب زيما ليس إلا دراسة سيميوطيقية أو أسلوبية بمنظور اجتماعي، وتنطلق دراسته بصفة أساسية من تحليل الخطاب اللغوي أو اللغوي الاجتماعي، أو اللهجات الجماعية في النص باعتبارها بنى اجتماعية بالماهية، تحمل خصائص اللحظة التاريخية التي تنتمي إليها وهو ينطلق من فرضيتين " أولهما: أن القيم الاجتماعية لا توجد مستقلة عن اللغة. ثانيتهما: أن الوحدات المعجمية والدلالية والتركيبية تمفصل المصالح الاجتماعية ".

يصبح النص الأدبي في هذا التصور ملتقى لخطابات ايديولوجية و لهجات جماعية متباينة ومتناقضة تشربها النص الأدبي بوساطة اللغة، ويقدم العالم الاجتماعي "جملة لغات جماعية تظهر في أشكال مختلفة في البنى الدلالية و السردية للتخييل". ومن تحليل اللغة داخل النص يصل إلى الدراسة التركيبية الدلالية المتكاملة القادرة على الكشف عن النص والمجتمع في نفس الوقت دون انفصال.

إن الذي يميز السوسيونقد عما سواه هو تركيزه على اللغة باعتبارها وسيطا بين النص والمجتمع / التاريخي الاجتماعي، ولا يمكن دراسة العلاقة بينهما إلا بواسطة اللغة، وإن كان السوسيونقد امتدادا للنقد الماركسي وتطويرا له إلا أنه جاء كرد فعل ضد نظرية الانعكاس، وقام بالأساس على استثمار مفهوم الشكل في الجمالية الماركسية، ويعد التناص من الأدوات المفهومية الأساسية التي يعتمد عليها لوصف وتفسير العلاقة بين النصي والاجتماعي، والتناص، كما يفهمه زيما مبدأ تكويني للنص الأدبي، وبهذا فإن التحليل التناصي أبعد ما يكون عن الدراسة التجريبية للاستشهادات المحصورة في التساؤل حول معرفة أي نصوص شفهية أو مكتوبة يمكن أن نجدها في العالم الأدبي كما أنه لا علاقة له بالتحليل البلاغي لتقنيات الكاتب،" إنه يجب أن يلقي الضوء على النص الأدبي في سياق حواري أي بالمقارنة مع الأشكال الخطابية التي يتفاعل عن طريق استيعابها وتحويلها ومعالجتها الساخرة ..الخ ".

**أهم المراجع المعتمدة :**

ـ جان أيف تادييه : النقد الأدبي في القرن العشرين ، ترجمة : منذر العياشي .

ـ بيير زيما : النقد الاجتماعي ، ترجمة : عايدة لطفي .

ـ إبراهيم محمود خليل / النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك .